القسم الخامس

فى نوادر الخليفة هارون الرشيد

إبراهيم الموصلى عند الرشيد

دخل إبراهيم الموصلىّ يومًا على الرشيد فأنشده:

وآمرة بالبخـل قلت لهـا اقصرى ... فليس إلى مـا تأمرين سبيلُ
فعالى فعـال المكثرين تجمـلاً ... ومالى كمـا قد تعلمين قليل
فكيف أخاف الفقر وأحرم الغنى ... ورأى أميـر المؤمنيـن جميـلُ

فقال: لله أبيات تأتينا بها ما أحسن أصولها، وأبين فصولها، وأقل فضولها، يا غلام أعطه عشرين ألفًا، قال والله لا أخذت منها درهمًا، قال ولمَ، قال لأن كلامك يا أمير المؤمنين خيرٌ من شعرى، قال أعطوهُ أربعين ألفًا.

* * *

الرشيد والمفضل الضبى

قال الرشيد للمفضل الضبى: قل ما أحسن ما قيل فى النوائب ولك هذا الخاتم الذى فى يدى، قال قول الشاعر:

ينام بإحـدى مقلتيهِ ويتقى ... بأخرى المنايا فهو يقظان نائمُ

فقال: ما ألقى هذا على لسانك إلاّ ذهاب الخاتم ورماه إليه فاشترتهُ أم جعفر بألف وستمائة دينار وبعثت به إليه فقالت قد كنت أراك تعجب به فألقاه إلى الضبى وقال: خذه وخذ الدنانير فما كنا نهب شيئًا فنرجع فيهِ.

* * *

ابن الجامع والجارية والرشيد

قال ابن جامع: انتقلت من مكة إلى المدينة لشدة لحقتنى فأصبحت يومًا وما أملك إلاَّ ثلاثة دراهم فى كمى فإذا بجارية علىَّ كتفها جرَّة تسعى بين يدىَّ وتترنم بصوت شجى وتقول:

شكونا إلى أحبابنا طول ليلنا ... فقالوا لنا ما أقصر الليل عندنا
وذاك لأن النوم يغشى عيونهم ... سراعًا ولا يغشى لنا النوم أعينا
إذا ما دنا الليل المضر بذى الهوى ... جزعنا وهم يستبشرون إذا دنا
فلو أنهم كانوا يلاقون مثلما ... نلاقى لكانوا فى المضاجع مثلنا

قال: فأخذ الغناء بقلبى ولم يدر لى منهُ حرف فقلت يا جارية ما أدرى أوجهك أحسن أم غناؤُك، فلو شئت أعدت، قالت حبًا وكرامة ثم أسندت ظهرها إلى جدارٍ وانبعثت تغنيه فما دار لى منهُ حرفٌ فقلت لها لو تفضلت مرة أخرى، فارتدت إلى الوراء وقالت أليس عجيبٌ أن أحدكم يجىءُ إلى الجارية عليها الضريبة فيشغلها، فضربت يدى إلى الدراهم الثلاثة فدفعتها إليها فأخذتها وقالت تريد منى صوتًا أحسبك تأخذ به ألف دينار وألف دينار وألف دينار ثم غنت ففهمته، ثم سافرت إلى بغداد فآل الأمر إلى أن غنيت الرشيد بهذا الصوت فرمى لى بثلاثة أكياس فتبسمت فقال: ممَّ تبسمت فأخبرتهُ خبر الجارية فعجب من إصابتها.

* * *

هارون الرشيد والعباس بن الأحنف

قال هارون الرشيد فى الليل بيتًا وأراد أن يشفعهُ بآخر فامتنع القول عليه فقال: علىَّ بالعباس بن الأحنف، فلما طرق ذعر وخاف أهلهُ، فلما وقف بين يدى الرشيد قال: وجهت إليك لبيتٍ قلتهُ ورمت أن أشفعهُ فامتنع القول علىَّ، فقال يا أمير المؤمنين دعنى حتى ترجع نفسى إلىَّ فإنى قد تركت عيالى على حالٍ من القلق عظيم ونالنى من الخوف ما يتجاوز الحد والوصف فانتظر

هنيهة ثم أنشد الرشيد:

حناقٌ قد رأيناها لم نر مثلها بشراَ

فقال العباس:

يزيدك وجهها حسنًا إذا ما زدتها نظرا

فقال الرشيد ردني فقال.

إذا ما الليل مال عليـ ـك بالإظلام واعتكرا

ودجّ فلم ترَ قمرًا فأبرزها ترى قمراَ

فقال الرشيد: قد أزعجناك وأفزعناك وأقل الواجب أن نعطيك ديتك فأمر لهُ بعشرة آلاف درهم وصرفهُ

* * *

الرشيد ويحيى البرمكى

كان يحيى يساير الرشيد يومًا فقام رجل فقال: يا أمير المؤمنين عطبت دابتى فقال: يعطى خمسمائة درهم، فغمزه يحيى، فلما نزل قال: يا يحيى أومأت إلى بشيءٍ حينما أمرت بالدراهم فما هو؟ فقال: مثلك لا يجرى هذا المقدار على لسانهِ إنما يذكر مثلك خمسة آلاف ألف، عشرة آلاف ألف، قال: فإذا سئلت مثل هذا كيف أقول؟ فقال: تقول يشترى لهُ دابة يفعل بهِ فعل نظرائهِ.

* * *

الرشيد وهيلانة وابن الأحنف

كان الرشيد شديد الحب لهيلانة وكانت ليحيى بن خالد فاستوهبها منهُ حتى غلبت على قلبهِ فأقامت عنده ثلاث سنين ثم ماتت فوجد عليها وجدًا شديدًا وأمر العباس بن الأحنف أن يرثيها، فقال فيها:

يا من تباشرت القلوب بموتها قصد الزمان مضرتى فرماكِ

أبغى الأنيس فلا أرى لى مؤنسًا إلاَّ التردد حيث كنت أراكِ

ملكٌ بكاك وطال بعدك حزنهُ لو يستطيع بملكه لفداك
يحمى الفؤاد عن النساء حفيظة كى لا يحلَّ حمى الفؤاد سواك

فأمر لهُ بأربعين ألف درهم لكل بيت عشرة آلاف درهم وقال لو زدت لزدناك.

* * *

الرشيد وبركة زلزل

وعمل ببغداد بركة للسبيل وكان يضرب بها المثل وأنشد نفطويه يصفها:

لو أن زهيراً وامرأ القيس أبصرا ملاحة ما تحويه بركة زلزل
لما وصفا سلمى ولا أم سالم ولا أكثرا ذكر الدخول فحومل

* * *

هارون الرشيد والكسائى

قال الكسائى: حضرت عند الرشيد فأخرج إلىَّ محمد الأمين وعبد الله المأمون كأنهما بدران فقال لى: كيف تراهما؟ فقلت:

أرى قمرَى أفق وفرعى كرامة بزينهما عرق كريمٌ ومحتدُ
سليلى أمير المؤمنين وحارزى مواريث ما أبقى النبى محمد
يسدان أنفاق النفاق بهمة يؤَيدها حزم ورأى وسؤْدد
حياةٌ وخصبٌ للمولى ورحمة وحرب لأعداء وسيف مهند

ثم قلت: فرع زكى أصلهُ وطاب غرسهُ وتمكنت فروعه وعذبت مشاربهُ أداهما ملك أغرُّ نافذ الأمر واسع العلم عظيم الحلم، أعلاهما فعلوا سما بهما فسموا فهما يتطاولان بطولهِ ويستضيئان بنوره وينطقان ببيانهِ، فأمتع الله أمير المؤمنين بهما وبلغهُ الأمل فيهما.

* * *